الأستاذة لطيفة الحاج قديح

فاطمة (ع) لؤلؤة الإنسانية

المحور: أثر الزهراء في البعدين: التربوي والأسري

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين.

من أين أبدأ يا شعري ويا قلمي بذكـــــر خير الخلق والأمـم

فنورُها قبسٌ من نورِ والدهـا يهدي إلى الحقِ في دنيا من الظلمِ[1]

مقدمة

لبيان الأثر القيم الذي تركته الزهراء (ص) على الإنسان في البعدين التربوي والأسري، لا بدّ لنا أولاً من التعريف بمصطلحي: التربية والأسرة.

تعريف التربية: عرف هذا المصطلح تعريفات عديدة كل منها يستند إلى خلفية قائله أو كاتبه. وفي أدبيات الاختصاص عشرات التعاريف، ومن بينها: أن التربية هي الرعاية الشاملة والمتكاملة لشخصية الإنسان من جوانبها الأربعة: الجسدي والنفسي والعقلي والاجتماعي بهدف إيجاد فرد متوازن يستطيع تأمين قوته واستمرار حياته والتكيف مع بيئتيه الطبيعية والاجتماعية. وهي تشتمل (أي التربية) على تعليم وتعلّم مهارات معينة، التي تكون ـ أحيانًا ـ مهارات غير مادية (وغير ملموسة)، ولكنها جوهرية، مثل: القدرة على نقل المعرفة، والقدرة الصحيحة على الحكم على الأمور، والحكمة الجيدة في المواقف المختلفة. ومن السمات الواضحة للتربية هو المقدرة على نقل الثقافة من جيل إلى آخر.

أما تعريف الأسرة (أو العائلة) فهو حسب علم الاجتماع: الأسرة هي الخليّة الأساسية للمجتمع وأهم جماعاته الأولية، وهي تتكون من أفراد تربط بينهم صلة القرابة والرحم. وتساهم الأسرة في النشاطات الاجتماعية في كل جوانبها المادية والروحية والعقائدية والاقتصادية، ولها حقوق مثل: حق الصحّة، وحق التعلّم، وحق السكن.. كما عليها واجبات مثل: نقل العلم والتراث واللغة عبر الأجيال. وتنقسم الأسرة إلى قسمين: الأسرة النووية، وتتكون من الزوج والزوجة والأولاد. والأسرة الممتدة: وتتكون من الأب والأم، الجد والجدّة، والأولاد والأحفاد.

**

ومن المعروف أن أحكام الإسلام هي حلقات متصلة ومتواصلة، لكل حلقة منها أهمية في دائرة الحياة الفردية، والعبادية، والأسرية، والتربوية والثقافية والاجتماعية، الخ... وكل هذه الحلقات متساوية في الأهمية. وقد كانت السيدة فاطمة الزهراء (ع) تؤدي مسؤولياتها في الدائرة الصغيرة للمجتمع (الأسرة النوويّة)، كما في الدائرة الكبيرة (المجتمع الإنساني)، ولا تضحي بأي منها، بل تتحمل أعباء هذه المسؤوليات بشكل متوازن دون ترجيح دائرة على أخرى. وهذه المسؤوليات متداخلة ومتشابكة في حياة الإنسان ويصعب الفصل بينها، ومع ذلك فسوف نحاول التركيز على المسؤوليات التي أضطلعت بها فاطمة (ع) في الدائرتين الأسرية والتربوية.

ولا يخفى على أحد ما للسيدة الزهراء من التأثير الكبير على الأجيال، من جميع النواحي، بدليل المحبّة العظيمة التي يكنّها المسلمون بجميع مذاهبهم وطوائفهم، لهذه القديسة، وعلى مدار العصور والأزمنة. وسوف نحاول من خلال هذه الدراسة بيان هذا التأثير.

ولبيان ذلك، علينا أولاً: التعرّف على تلك السيدة الفائقة القداسة، وعلى ظروف تكوينها، وطفولتها ونشأتها، وعلى القيم التي تربّت عليها، والمحيط الأسري والشخصيات التي أحاطت بها، وشكّلّت اللبنة الأساسية التي طبعتها بطابعها، وكذلك التعرّف على شخصيتها الفذّة ونشاطاتها المتعدّدة وسلوكها المثالي ومواقفها المشرّفة التي أدت إلى التأثير في الأجيال على مرّ العصور.

أولاً: من هي الزهراء (ع)؟

هي فاطمة (ع) ابنة أعظم شخصية عرفها التاريخ على مرّ العصور والأجيال، رسول الإسلام محمد بن عبد الله (ص). والدتها السيدة خديجة (رضي) الذي قال عنها الرسول (ص): "ما قام ولا استقام ديني إلا بشيئين: مال خديجة وسيف علي بن أبي طالب"[2]. وهي زوجة علي بن أبي طالب (ع) أعظم إمام وأشجع بطل، وأم أينع بزغتين في تاريخ الإسلام: الإمامين الشهيدين الحسن والحسين، ووالدة السقط الشهيد المحسن (ع). وهي أيضاً والدة "الحوراء زينب" العالمة الطاهرة الذكية التقيّة، ووالدة "أم كلثوم" (عليهما السلام).

تسميتها وألقابها: إن الروايات كثيرة في هذا المقام، ولكن معظمها يشير إلى: أن الله تعالى سمّاها فاطمة لأنه فطمها ومحبيها عن النار"[3]. ولما ولدت أوحى الله تعالى إلى ملك فانطلق لسان والدها النبي (ص) فسمّاها فاطمة، قائلاً: "لقد فطمها الله بالعلم عن الجهل، وعن الطمث بالميثاق"[4]. وفاطمة (ع) ألقاباً عديدة منها: الزهراء والبتول والصديقة والمباركة والزكية والمرضية والمحدثة والحانية وأم الإئمة (ع) والطاهرة والمنصورة والريحانة والبضعة وغيرها...وأهم هذه الألقاب: سيدة نساء العالمين[5].

ظروف تكوينها، وولادتها ونشأتها (ع): أختلف في تاريخ ولادة فاطمة الزهراء فهو: إما يوم الجمعة في العشرين من شهر جمادى الآخرة في السنة الخامسة بعد البعثة النبوية الشريفة بعد حادثة الإسراء والمعراج (حسب الروايات الشيعية)، وكان عمر النبي إحدى وأربعين عاماً أو قبل البعثة النبوية في مكة المكرمة والنبي له من العمر خمسة وثلاثون عاماً (حسب روايات أهل السنة)[6]. وفي الحديث الشريف عند المسلمين، أن النبي عرج إلى السماء، وفي عروجه كان طعامه من العالم العلوي، وبعد العروج تمّ الحمل بفاطمة (ع)[7]. والعلم الحديث يشير إلى تأثير الغذاء في بنية الجنين النفسية والجسدية للمرأة كما للرجل على حد سواء. ومن الطبيعي أن فاطمة (ع) قد تأثّرت في تكوينها بنمط الغذاء الذي تناوله الرسول (ص)، وهي تحمل في تركيبتها الطهارة من غذاء الجنة، وهذه ليست مسألة بسيطة، فعندما يكون نسيج البدن من أرقى ثمار الجنة وأنقاها وأصفاها، ويكون الأب خير الخلق، فأي بدن طاهر سيكون؟ وفوق ذلك

فالروح التي سترتبط بهذا البدن، أي روح ستكون؟ إنها روح السيدة الزهراء (ع)، وهي لهذا ليست امرأة عادية من النساء كما يتصور الإنسان السطحي، بل هي جوهر وناموس، ومسار وجود، وقضية يحتاج فهمها لعقول واعية لديها قدرة على الاستيعاب. وقد ورثت الزهراء (ع) الكثير من صفات والديها ولا سيما صفات والدها (ص).

وقد قيّض لفاطمة (ع) أن تولد في بيت الوحي ومهبط الرسالة، وأن تتربى أحسن تربية، وتتدرّج في صعود مراتب الكمال حتى بلغت أعلى رتبة، فحملت من العلوم والبلاغة والفصاحة والأحكام الشرعية، والسنّة النبوية الشريفة ما جعلها في مقدمة النساء معرفة بالدين؛ وما ذلك إلا لأنها صحبت أباها الرسول (ص) منذ نعومة أظفارها إلى أن فارقها ملتحقاً بالرفيق الأعلى. فهي لم تكد تفتح عينيها على الدنيا إلا وقد ملأ سمعها أحداث تبليغ دعوة الإسلام ونشرها، وبثّها بين جموع قريش. فشهدت على كل شيء في حياته، وشاركته في كل شيء، لذلك قال عنها علماء السيرة: "إنها كانت أشد عزماً من أخواتها،(رقّية وأم كلثوم (ع)) وأكثر وعياً لما جرى، ويجري من أحداث واكبت دعوة التوحيد والإيمان"، مع أنها أصغر بنات الرسول سناً". هذا وقد انقطع نسل الرسول (ص) إلا من نسل فاطمة الزهراء (ع).

***

طفولتها: ومنذ طفولتها المبكرة شهدت فاطمة (ع) أحداثاً متعدّدة قاسية وصعبة، حيث النبي يعاني من الاضطهاد ومن أذى عمه "أبي لهب" المعروف بكفره وعناده، وغلّوه في عداوته للرسول وللرسالة، تسانده زوجته، حيث كانا هما واتباعهما يرمون الأشواك والقاذورات أمام منزل الرسول (ص)، وكان آخرون يتهمونه ظلماً بممارسة السحر، وهو الصادق الأمين، فكانت فاطمة (ع) تصاب بالغضب والحزن وتأخذ بالبكاء، ولكن والدتها السيدة خديجة (رضي) كانت تقوّيها وتخفّف عنها، وتشجّعها، وتدفعها للصبر والتحمّل، ومؤازرة والدها والذود عن حياضه، فيخفت غضبها وتندفع إلى مواساة والدها (ص) كما إلى أعمال التنظيف والتطهير.

ومنذ الطفولة تجلّى حبّ فاطمة (ع) لوالدها وتعاطفها معه في أحداث كثيرة، ولا سيما بعد وفاة والدتها وهي في سن مبكرة. ومن هذه الأحداث على سبيل المثال لا الحصر: حادثة جرت

للرسول في بداية الدعوة عندما كان يصلي، وبينما هو يسجد للصلاة عند الكعبة، جاء بعض المشركين فرموا فوق رأسه بقايا أمعاء لحيوان نافق، كريه الرائحة لدرجة جعلت بعض الناس المحيطين به يستهزئون ويسخرون، وبعضهم يهرب من المكان، والرسول (ص) ما زال في سجوده لا يتزحزح، إلى أن خرجت من بين الجموع طفلة صغيرة راحت وهي تبكي، تزيل عن رأس والدها ما علق عليه من القاذورات بينما هو ساجد؛ وكذلك حصل أنها في وقت آخر، كانت تختبىء في حجر "النبي اسماعيل" والمشركون يتآمرون على والدها (ص)، فتنبهت إلى ما يقولونه وأفصحت عما سمعت من التآمر، وبما يخططون له.

وقد حملت الزهراء (ع) أعباء بنوتها للنبي وشهدت محاولة الكفار خنقه في الكعبة، ما جعلها تصاب بالوجوم لولا مجيء صديقه أبو بكر الصديق (رضي) وتصدّيه لهم[8]. وها هي تخبر والدها (ص) وهي تبكي بأن سادة قريش يريدون ضربه لمنعه من دخول الكعبة، فيأخذ (ص) قبضة من تراب تعميهم عن رؤيته[9].

وبناء لهذا الواقع الأليم، جاء أمر الله لرسوله بالهجرة وترك الديار إلى الحبشة، ولكنّه لم يستثن نفسه عن هذه الهجرة، فها هي حبيبة قلبه ابنته السيدة رقية (ع) تهاجر مع زوجها "عثمان بن عفان" (رضي)، فيعتري فاطمة الحزن والخوف على فراق أختها الحبيبة[10]. ولا شك أن لهذا الأمر أبعاداً عظيمة تؤكد أن أنجع وسيلة من وسائل التربية هي التربية بالقدوة. ليس هذا فحسب، فها هو والدها الرسول (ص) يتخذها هي نفسها قدوة من دون سائر أخواتها، فتصبح مضرب مثل في الإيمان، فعندما تسرق المرأة المخزومية يأتي من يشفع لها، فيقول الرسول (ص): "*لو كانت فاطمة بنت النبي محمد سارقة لقطعت يدها*"[11]. هذا غيض من فيض الدروس والعبر التي تعلّتمها فاطمة من والدها الرسول (ص) وطبّقتها في حياتها الشخصية مع أولادها !.

وتتسارع الأحداث ويشتدّ هولها، ما جعل طفولة فاطمة (ع) مختلفة عن طفولة غيرها من الأطفال العاديين، فيما يمثل البراءة، وحبّ اللعب واللهو والعبث، وجعلها (ع) تنضج قبل الآوان، فنشأت الزهراء رسالية في مشاعرها وعواطفها ومواقفها وكل حركاتها، ما دفعها إلى

تقمص شخصية الأم والقيام بدورها في احتضان أبيها والتخفيف عنه، ورعايته والاهتمام به، ومعاملته بكل عطف وحنان وتفهّم، فقد أصبحت أنثى راشدة وهي بعد في سن الطفولة.

حياتها مع والدها (ص): وتمرّ الأيام، ويزداد أذى المشركين على الرسول (ص)، فتدرك فاطمة أن عليها أن تتقبل واقع حال أبيها (ص)، وتسانده، وكذلك عليها أن تتقبّل موضوع زواجه (ص) بعد وفاة والدتها عن طيب خاطر، فكانت مواقفها من زوجان أبيها، مواقف مشرّفة، حيث كانت شديدة الإنسجام والتعاون معهن، شديدة الاحترام والتوقير لهن، ولم تتحدث الروايات عن أي خلاف بينها وبينهن. ولا شك أنها كانت في ذلك تقوم بواجبها، فالقاعدة الأساسية بالنسبة لها كانت: ما الذي يسعد أباها لتقوم به؟ فهي تريد له أن يدخل داره مرتاحاً، فلم تكن تختلق المشاكل إطلاقاً، بل كانت أكبر مساعد ومتفهّم له (ص) ولزوجاته"[12].

وقد كانت (ع) تشاهد وتراقب، وتعي كيف كان المشركون يواجهون دعوة النبي (ص) بأساليبهم القذرة، للقضاء على الإسلام وعلى والدها الرسول (ص) وعلى أتباعه، وتعرف أن تلك الوسائل قد باءت جميعها بالفشل. ولا شك في أن تلك المرحلة كانت مِن المراحلَ التربوية الهامة التي صنعت جيلاً من المسلمين يستطيع أن يواجه الأهوال والمصاعب من دون تردّد أو ضعف، جيل تربى على يدي النبي (ص). وقد وصفهم الله تعالى بقوله: (من المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تبديلا)[13]. وقد كان لتلك الدروس الجهادية المشرّفة من هؤلاء التأثير القوي على فاطمة الزهراء (ع) ما شدّ عضدها وجعلها تتحمّل كل الابتلاءات والأهوال والمصاعب التي مرت معها.

زواجها (ع):

وعندما تزوجت فاطمة لم يكن المعيار فقر العريس أو غناه، لأن ليس هذا أساسياً في موضوع الزواج، (وقد طلبها اشراف قريش وأغناهم) صحيح أن الخاطب ليس غنيّاً بالمال، ولكنه أغنى الناس بالصفات الإنسانية التي تقرّبه من الكمال، ما يجعله كفوءاً لها. فالمال لا يحقق وحده السعادة، بل أن الزواج القائم على التكافؤ والتفاهم والإنسجام، والمحبّة بين الطرفين، عدا عن التناسب الفكري والعلمي والمعنوي، إلى جانب التسامح والتساهل في الشروط وعدم

تعقيد الأمور، هو ما يحقق السعادة في الحياة، ويساهم في تشكّل نواة لأسرة متماسكة هي عماد المجتمع الصالح، الذي يبني على أساسه الوطن القوي المستقل. وفي هذا يتحقّق قول القرآن الكريم: ﴿ *خلق لكم من انفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها* ﴾[14]، وكلمة سكن، تحمل معاني السكينة، والاستقرار النفسي، حيث يستشعر المرء أن قلبه يفرح وحياته تضاء وتزهر بمساعدة الشريك. وهكذا كانت الزهراء بزواجها الميمون من الإمام علي (ع) مثالاً للتكاتف والتلاحم والمحبّة، مقابل التناحر والتفكك والتشرذم الذي تشهده بعض الأسر، فقد كانت حياتهما مثالاً يحتذى به، من أجل تحقيق النتاج الجيد لبناء أسرة سعيدة، تتجذر في نفوس أبنائها قيم الخير والمحبّة والتضحية والتسامي..

عرسها (ع): يذكر أهل السيرة، أن الجميع (أهل العريس وأهل العروس) قد تعاونوا في تهيئة هذا العرس المبارك، الذي كان نموذجاً يقتدى به للزواج الإسلامي البعيد عن المغالاة في المهور والبذخ، فهو زواج يرتكز على بساطة العيش وتسهيل الأمور وتفضيل القيم الإلهية على المقاييس المادية.

وبزواجها انتقلت فاطمة من بيت الرسالة والنبوة، إلى دار الوصاية والإمامة والخلافة، والولاية، في جو تكتنفه القداسة والنزاهة، وتحيط به عظمة الزهد، وبساطة العيش، والمحبّة والإلفة والتعاون، وقد اكتفت باليسير اليسير من متاع العيش. وتحكي سيرتها: إن جهازها كان بسيطاً، فلم يكن لديها (على سبيل المثال) إلا جلد كبش واحد تستفيد منه كفراش.

حياتها مع زوجها (ع): وقد أسست فاطمة (ع) مع زوجها الإمام علي (ع) بيتاً متواضعاً في ظاهره، ولكنّه فخماً عند الله ورسوله، حيث كانت شلالات السعادة والسمو ومكارم الأخلاق تنبع من كلّ جانب من جوانبه، وتنساب بعذوبة في كل ركن من أركانه. وكان أساس ذلك البيت المحبّة والتعاون والايثار والتضحية، والكرم والتسامح...، وقد تعلَّمت الزهراء من والدها الرسول (ص) معنى الحياة، حيث أوحى لها (ص) بأن الإنسانية هي جوهر الحياة، وأن السعادة الزوجية القائمة على الخلق الكريم والقيم الإسلامية هي أسمى من المال، والقصور، والمجوهرات والزخارف، وقطع الآثاث، وتحف الفن المزخرفة... وكانت (ع) تعيش في كنف

هذا الثراء الروحي، قريرة العين، سعيدة النفس، لا تفارقها البساطة، ولا يبرح بيتها شظف العيش وخشونة الحياة، فهي الزوجة المثالية، لزوج مثالي، باب مدينة علم الرسول (ص)، وبطل المسلمين، ورجل الإقدام، والفداء، والإيثار، وحامل لواء النصر والجهاد، فعليها أن تكون بمستوى ذلك الارتباط الزوجي، وتلك المسؤولية العظيمة، وعلى مستوى المهمّة الموكلة إليها، وأن تكون لزوجها علي (ع) كما كانت أمها خديجة (رضي) لرسول الله (ص) تشاركه في جهاده، وتتحمّل معه صعوبة مراحل الدعوة الإسلامية التي حملها الرسول (ص).

وكان زواج الزهراء(ع) امتداداً لرسالة الإسلام لتنجب الأئمة الأطهار (ع)[15]. وقد عاشت (ع) مع الإمام علي (ع) حياة بسيطة، بعيدة عن مظاهر الغنى والرخاء، ولا يسودها البذخ والإسراف، حياة مثقلة بهموم البيت والحمل وتربية الأولاد، وفي الوقت عينه مثقلة بمسؤوليات الرسالة؛ وعلى الرغم من ضعف بنيتها الجسدية، إلا إنها لم تقصّر في واجباتها كزوجة وكأم، فكانت تطحن وتعجن وتخبز وتطبخ وترعى أولادها وزوجها، وتقوم بكل الشؤون التي تتطلبها طبيعة مسؤولية ربة البيت في بيتها. ولم تكن الظروف مثل هذه الأيام الناعمة، حيث كل شيء في أعمال البيت سهل ومريح. بل لقد عاشت الزهراء (ع) عن اختيار وقناعة، ظروف حياة زوجها (ع) الذي كان يتنقل مع الرسول من حرب الى حرب ومن غزوة الى غزوة، ثم يعود إليها متعباً، فتمتدح تضحياته وعمله وتخفّف من تعبه وآلامه، وتساعده في حل مشاكل الناس والفقراء، فها هي (ع) وعائلتها يتصدّقون بإفطارهم ثلاثة أيام متتابعة، للمسكين واليتيم والأسير، حيث نزلت فيهم الآية[16]: (ويطعمون الطعام على حبّه مسكينا ويتيما واسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا).

وقد روي عن علي (ع) إنه قال: "ما أغضبتها مدة حياتي معها ولم تغضبني ولم تعص أمري مدة حياتها معي[17]. ومن كلامها مخاطبة زوجها قبل وفاتها: "ما عهدتني كاذبة ولا خائنة ولا خالفتك منذ عرفتك". فأجابها قائلاً: "أنت أبر وأتقى وأعرف بالله من أن أوبخك في شيء من ذلك!"[18]. كل هذا ليس سوى دليل صارخ على أن الزهراء (ع) قد جعلت من بيتها بيتاً إسلامياً نموذجياً، يفيض بالقيم الإنسانية الحقّة والمحبّة والاستقامة، وبالأخلاق والخشوع

والرحمة والعدل والتسامح، هذا عدا عن الطهارة، والروحانية والعبادة، والزهد، وذلك من خلال تطبيق التعاليم الإسلامية التي تعلمتها، وطبقتها كما يجب أن تطبق، و بنت عليها أساس الأسرة التي كونتها هي وزوجها (ع، فكان جميع من في تلك الأسرة يجدون الإسلام يحيط بهم من كل جانب، فيتمتّعون بما فيه من الراحة والسعادة والتفتّح. وهكذا كانت فاطمة (ع) في سموها الفكري والروحي، إنسانة الطهر والنقاء والعصمة، فهي صورةً من رسول الله (ص) وانفتاحاً على علي (ع)، تتجلىّ فيها صفات المؤمنين بأبهى صورها. وتجدر الإشارة أن عاقد القران في حفلات الزواج يدعو الله تعالى قائلاً: "اللّهم وفق بين هذين الزوجين كما وفقت بين علي وفاطمة!"[19].

علم فاطمة (ع)

ويتكشّف لمن يتابع سيرة الزهراء (ع) مدى علمها وحنكتها ودرايتها (ع)، على الرغم من أنها لم تدخل مدرسة بالمعنى التقليدي للكلمة، ولم تتلمذ علي يدي معلم أو معلمة. ولكن (وكما سبق وذكرنا) شاء الله لها أن تتربى في أعظم بيت وُجِد على ظهر البسيطة، هو بيت الوحي والرسالة، وعلى يدي أعظم رجل أنجبته البشرية، الرسول محمد (ص) فكان يعلّمها من علمه الإلهي في كل يوم شيئاً جديداً، فعاشت في مدينة العلم والمعرفة، مع الوحي الذي كان ينزل عليه (ص) في كل حين، فتتحسّس أجواءه، وتعيش أخلاقه وروحانيته وابتهالاته ليلاً ونهاراً.

ولا يمكننا أن نتجاهل ما اكتسبته هذه السيدة العظيمة (ع) من معرفة وعلوم بانتقالها من بيت والدها العائلي إلى بيتها الثاني وهو بيت زوجها علي (ع) باب مدينة علم الرسول، وجامع قرآنه، وصاحب نهج البلاغة، الذي عاش حياته كلها مع الله عزّ وجلّ ومع الرسول (ص)، فأحبّهما بعقله وقلبه، وعاش حياته جهاداً بالسيف وبالكلمة والموقف وبتوعية الناس وتعليمهم في سبيل إحقاق كلمة الحق، وقد عبّر الإمام نفسه عن هذه الحالة بقوله: "لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً". فكيف إذن لا تكون متعلّمة، ولا تكون علاقتها بالقرآن الكريم علاقة مميّزة؟.

تربيتها لأولادها (عليهم جميعا أفضل الصلوات)

وقد شاء الله أن يكون نسل النبيّ الأكرم (ص) بواسطة ابنته فاطمة (ع) التي أرادها أن تكون صلة الوصل بين النبوة والإمامة، فامتدّ نسلها الشريف عبر سلسلة من الأئمة، أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً. وهذه الذرّية الطيبة لا تدانيها ذرية إنسانية أخرى في الصلاح على مدى التاريخ، فهي قمة القمم، والمثل الأعلى في الخير والأصالة. فالحسن والحسين (ع) قد ذكرا في كتب التاريخ إنهما إمامان من أئمة أهل البيت (ع) الذين تسلسلت منهما ذرّية الرسول (ص) الطاهرة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم بقوله: (سلام على إل ياسين)[20].

تربية فاطمة (ع) لأولادها: أسست فاطمة (ع) بطريقتها مدرسة مثالية، فريدة من نوعها، لا تضاهيها أية مدرسة أخرى، ووضعت لها أسساً تربوية استقتها من معين الرسالة الإسلامية والرسول الأكرم (ص). وقد ألتحق بنوها (ع) بتلك المدرسة، فنهلوا من معينها حتى الارتواء، وتخرّجوا منها بدرجات مشرّفة جداً لم يحز مثلها بشرٌ من بعدهم (خارج بيت الرسول (ص). ولمعرفة أبعاد هذه العملية التربوية، لا يسعنا سوى القول بأن بداية الانطلاق في تربية الأطفال وتنشئتهم إنّما تكون منذ أن يروا نور الحياة. فالزهراء عليها السلام كانت على درجة رفيعة للغاية في امتلاكها لثقافة الأمومة (والأم هي المعلمة الأولى) التي من أول معطياتها النظر باحترام بالغ إلى الأطفال والأولاد وبالتالي التعامل مع كل فرد منهم على أنه إنسان مكتمل مؤهل لتلقّي التربية والتعليم، وليس الانتظار به حتى يكمل السادسة أوالسابعة من عمره حتى تبدأ معه هذه المسيرة، فكما يقول المثل الشعبي: "العلم في الصغر كالنقش في الحجر".

من ناحية أخرى عاش أولادها البررة كما عاشت هي وزوجها (عليهم جميعاً السلام) حياة البساطة والتقشف، وقد تختلف تأثيرات هذه المعيشة البسيطة عن تأثيرات حياة الترف والرفاه على نفس الطفل. ففي الحالة الثانية، ينشأ الطفل على الدّلع والدلال، ويتعود على تلبية طلباته، فينعدم لديه الإحساس بالتعاطف، تجاه حالات الفقر والحرمان، لعدم تذوّقه مرارتها، كما أن مشاكل الحياة وقسوتها قد تصدمه بقوة، بسبب عدم استعداده النفسي لمواجهة الصعوبات والمشاكل. أما في الحالة الأولى فإن شخصية الطفل قد تكون أكثر اتزاناً وصلابة، وأقل

استهانة بالأشياء والأمور، وأقرب الى التفاعل النفسي مع الطبقات المحرومة والضعيفة في المجتمع.

كما أننا يجب أن نفرّق بين البساطة والتقشف اللذين يفرضهما الفقر والحاجة، وبين البساطة والتقشف اللذين تفرضهما حالة الإختيار والطواعية، ففي الحالة الأولى قد تسبب حالة البساطة والتقشف القسرية عند الأنسان وجود التطلعات والتمنيّات لرغد العيش ورفاهية الحياة، كما قد يتسرب الى نفس الطفل شيء من الحقد والحسد وحبّ الانتقام، أو على الأقل عدم الارتياح تجاه الأغنياء والمترفين. بينما عندما تختار العائلة حالة التقشف والبساطة كنمط للعيش، في هذه الحالة لا بدّ للمشاعر والانعكاسات الايجابية دون السلبيات، من الظهور عند الطفل، الذي يرى أن عائلته تمتلك القدرة على الرفاه، لكنها لا ترغب به لمنطلقات أخلاقية، فهي (أي العائلة) تؤثر الفقراء والمحتاجين، وتجود عليهم وعلى الضعفاء والمعوزين.

وبين هذا وذاك، لا بد من الإشارة إلى سلوك فاطمة (ع) في الحياة، الذي طبع مسيرة تربيتها لأولادها بطابعه، ولا سيما عبادتها وتهجّدها، وتفانيها في أداء ما هو منوط بها، فالإناء ينضح بما فيه، وفاقد الشيء لا يعطيه. فهي كانت تواظب على اصطحاب من أنجبتهم إلى محراب عبادتها آناء الليل وأطراف النهار، لتعلّمهم أنواع التبتّل والتهجّد. وبالإضافة إلى ذلك، لم تغفل الزهراء الناحية العلمية؛ فهي قد طبقت أرقى نظريات علم التربية الحديثة التي تقول أن أفضل سنوات التعلّم عند الإنسان هي سنوات الطفولة الأولى. وقد ذكرت لنا روايات التاريخ الفاطمي –على شحّتها– كيف أنها (ع) كانت تعلّم ولديها (ع) خطب جدهما رسول الله (ص) وهما لما يبلغا الخامسة من العمر بعد، حيث كانت تطلب إليهما – كطريقة من طرائق التعليم– حفظ ومراجعة ما سمعاه من خطاب جدهما (ص) على مسامعها، ثم أنها كانت تعيد الكرّة بحضور والدهما أمير المؤمنين (ع) ليطمئنّ قلبه على سيرتهما التربوية.

ولقد شهد التاريخ المستوى الفريد من نوعه الذي بلغه هذان الإمامان الفذّان (الحسن والحسين (ع)) في العبادة والخطابة، حتى أن العلماء والخطباء كانوا في ذلك الزمن وما تلاه، يقرّون لهما بالفضل والأولوية في هذين المجالين. فمعاوية [21] مع جرأته القاسية المعهودة كان

يتمنى- ولو لمرة واحدة- أن يتفوّق على الإمام الحسن (ع) في الحديث أو أن يتسنى له إحراجه في الكلام، فكان يجمع إليه العتاة المردة، أمثال عمرو بن العاص ومروان والمغيرة، وغيرهم، فيبدأون بمهاتراتهم الكلامية محاولين إيقاع الإمام المجتبى (ع) في المطبّات الكلامية، إلاّ أنهم لم يكونوا ليجدوا منه سوى الحكمة والعلم والأخلاق ورباطة الجأش، حتى يقول قائلهم: "لقد زُقَّ الحسنَ بن علي العلمَ زقّاً، وأن الله أعلم حيث يجعل رسالته"[22]. أما شهيد كربلاء الإمام الحسين (ع) فنراه في "واقعة الطفّ" الدامية[23]، لا ينافسه في روعة خطاباته وبلاغتها وفصاحتها منافس.

ولم تميّز الزهراء (ع) بالمعاملة بين ولد وبنت، فها هي تصطحب أيضاً ابنتها زينب الكبرى (ع) إلى مسجد أبيها الرسول (ص)، لتنمي قدراتها، وتعلّمها درساً في الثبات على الحق، والصلابة والعنفوان، وتحدي الطغيان، وفضح الفساد الذي سيصيب الأمة الظالمة في عهد الإمام الحسين (ع). وقد حفظت الحوراء (ع) الدرس وطبّقته عملياً عندما وقفت، في مجلس يزيد، كمحامية قديرة لتدافع عن أخيها الحسين (ع) وعن عياله وأطفاله، كما عن عوائل سائر الشهداء، بالإضافة إلى مساندتها لابن أخيها الإمام المعصوم "علي زين العابدين" (ع) في محنته. وهذا بطبيعة الحال لم يكن ليحدث أو ليكون لولا ما بذلته سيدة نساء العالمين فاطمة بنت محمد (ع) من جهود جبّارة في تربية أولادها الكرام البَررة.

فاطمة (ع) في الدائرة الاجتماعية: معلّمة لنساء المؤمنين

ولم تكتف فاطمة (ع) بما تقوم به من الأعمال المنزلية الصرفة وإنجاب الأطفال وتربيتهم، مع ما لهذه الأعمال من وقت وجهد، ومسؤولية، ولم يمنعها كونها ابنة الرسول الأكرم (ص) وزوجة الرجل المسؤول المجاهد، من وظيفة التثقيف والتعبئة والقيام بمسؤولية التعليم، ونقل العلم الذي تعلمته عن والدها وعن زوجها ومن الحياة إلى غيرها. بل لقد أعدّت نفسها لنقل ما تعلّمته إلى أولادها، وإلى نساء بني هاشم، وخاصة أن الإسلام يشجّع على التعلّم ويثمن عالياً دور المعلم، ويعتبر أن أفضل مهمة يقوم بها الإنسان إنما هي نقل ما تعلمه من علوم ولا سيما العلوم القرآنية لغيره، بدليل قوله تعالى: (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)[24]. فمن

الحرام أن يحجب المسلم ما تعلّمه عن غيره. وقد حوّلت (ع) بيتها إلى مدرسة تَفِد إليها النساء المسلمات، اللواتي كن يجتمعن عندها، فيتعلّمن ويأخذن من نورها مشعلاً ينير دروبهن نحو هدى الرسالة.

محبّة فاطمة (ع) لجيرانها وللآخرين

بالإضافة إلى مسؤولياتها الكثيرة كان مشهوداً للزهراء ورعها وتقواها، فقد كانت تقوم الليل وتحييه بذكر الله وعبادته، وتستغل ذلك لتدعو للمؤمنين والمؤمنات، قبل أن تدعو لنفسها، فكانت بذلك تعي معنى التقرّب من الله وقيمة التضرع بين يديه والبكاء من خشيته، وهذا ما جعلها تتعبّد بشكل منقطع النظير، فتعيش عمق الإخلاص والمحبّة لله. فقد أحبّت الزهراء خالقها، وأحبّت خَلقَه، وعاشت لأجلهم. وعن الإمام الحسن قوله[25]: إني رأيت أمي فاطمة (ع) قد قامت في محرابها ليلة الجمعة، فلم تزل راكعة وساجدة حتى ينبلج عمود الصباح، وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم، وتُكثِر من الدعاء لهم، ولا تدعو لنفسها بشيء. فقلت لها: يا أُمَّاه، لِمَ لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟. فقالت (ع): يا بُنَي، الجار ثم الدار". فقد كان دعاؤها (ع): للجار أولاً، وبعدها لنفسها وأهل بيتها، لأن الله تعالى، قد أوصى بالجار، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحبّ لجاره ما يحبّ لنفسه". والذي يحسن إلى جاره هو خير الناس عند الله، فالمؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضا، وكما قال الرسول (ص): "مثَلُ المؤمنين في تَوَادِّهم وتراحُمهم وتعاطُفهم: مثلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تَدَاعَى له سائرُ الجسد بالسَّهَرِ والحُمّى"[26].

أي ليس الدار ثم الدار وإغلاق الباب في وجه الجار، كما يحصل هذه الأيام، من التنافر والتباعد والتخاصم، والخلاف بين الجيران والتنازع والتشاجر على مواقف السيارات واقتسام المياه والكهرباء وخلافه !. بل على عكس ذلك، ما يكفي من التعاطف والمحبّة والمساعدة للآهل والجيران والآخرين، وبهذا التصرّف تبرهن الزهراء (ع) بأنها تضمر المحبّة المطلقة للناس، فهي تستبعد الأنا ليحلّ الآخر مكانها. وأي أمثولة تعطيها الزهراء لأولادها البررة وللأجيال من بعدهم، من خلال هذا التصرف الإنساني الراقي؟.

جهاد فاطمة وتواضعها وزهدها (ع): وقد شاركت فاطمة (ع) في المعارك الدفاعية ضد المشركين والكفار، مشاركة تنسجم مع واجباتها كأمرأة، فالجهاد بالسيف وبالسلاح واجب على الرجل فقط وليس على المرأة، إلا أن أنواع الجهاد الأخرى مباحة للمرأة، ومن هذه الأنواع: القيام بخدمة المجاهدين والمقاتلين، فقد شاركت في "معركة بدر" هي وأربع عشرة امرأة يحملن الطعام والشراب على ظهورهن، ويسقين الجرحى ويداوينهم، وفي "معركة أحد" قامت بتضميد جراح رسول الله (ص) حيث أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رماداً ثم الصقته بالجرح، وفي "غزوة الخندق" جازت إلى رسول الله (ص) بكسرة من خبز، فقال: "يا بنية أما إنها لأول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث"[27].

هذا عن جهادها، أما عن تواضعها فحديث يطول وسوف أكتفي ببعض الأمثلة. ولا شك أن فاطمة (ع) من الأبرار الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه الكريم، وهم الذين عرَفوا الدنيا وما فيها من نعيم زائل، فأعرضوا عنها بقلوبهم، والتمسوا رضوان الله تعالى في مأكلهم، ومَلبَسِهِم، وأسلوب حياتهم. فعلى الرغم من كون السيدة الزهراء (ع) ابنة الرسول (ص) وهو أعظم رجل في قومه، والقائد المطاع والمطلق الصلاحية، فقد كانت في منتهى التواضع، ولم تكن لتستغل مقام والدها (ص) أو نفوذه لتحقيق أي نوع من المكاسب. وقد نظر إليها سلمان يوماً وبكى، قائلاً: "واحُزناه، إن بنات قيصر وكسرى لفي السندس والحرير، وابنة محمد (ص) عليها شملة صوف خَلِقَه[28]، قد خيطت في اثني عشر مكانا"[29].

وقد روي عن أسماء بنت عميس (وكانت من المقرّبات للسيدة الزهراء (ع)، أنّها قالت: كنت عند فاطمة (ع)، إذ دخل عليها رسول الله (ص) وفي عنقها قلادة من ذهب كان اشتراها لها عليّ بن أبي طالب (ع) من فيء. *فقال لها رسول الله: "يا فاطمة لا نريد للناس أن يقولوا: "إنّ فاطمة بنت محمّد تلبس لباس الجبابرة!"*. فقطعتها وباعتها واشترت بها رقبة، فأعتقتها، فسرّ بذلك رسول الله (ص) [30]. وكذلك كانت (ع) في إحدى المرات قد ابتاعت زينة لنفسها، فلما وقع نظر والدها (ص) عليها تغّير وجهه، فعلمت على الفور عدم رضاه فسارعت بإرسال ما ابتاعته مع ولدها الإمام الحسين (ع) إلى الرسول (ص) ليتصدق به في سبيل الله، وما

أجمل الأجر الذي تحصل عليه مقابل هذا العطاء، حيث قال (ص): *"فداها أبوها لقد علمت ماذا نريد"*[31].

هكذا كانت فاطمة مثالاً يحتذى في التواضع والأخلاق الكريمة، تخطّ طريقاً يمشي عليه ليس أولادها فقط، بل كل من يسعى إلى جنة الخلد. وقد استطاعت (ع) بمعايشتها وتحمّلها لكل تلك المعاناة والمصاعب التي مرت عليها (ع)، أن تبني جيلا يعيش قيم الخير والمحبّة. وهذا الجانب من شخصيتها شكل الفارق بينها وبين غيرها من النساء، لأن بساطة عيشها، وقساوة حياتها، وخشونة مأكلها وملبسها، مما يندر أن تصبر عليه النساء، ولكنّها صبرت على المعاناة، لأنها كانت تعيش منفتحة على الرسالة وعلى ما هو مطلوب منها، وليس على الذات ورغباتها، وكانت تتحرك من موقع رضا الله عنها وليس من موقع رضا النفس، فكانت بذلك كما قال علي (ع) وهو يخاطب أصحابه: "ليس أمري وأمركم واحداً، إنني أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم"[32]. وعنه (ع) قوله: "دخلتُ على فاطمة ذات يوم فوجدت جسمها كله يعبد الله ـ وبين رجليها الرحاية وتعطي ابنها ثديها وهي تتلو كتاب الله بلسانها وتفهمه بعقلها.

علاقتها (ع) بوالدها الرسول (ص):

إلى جانب واجباتها كزوجة، لم تهمل فاطمة (ع) الاستمرار برعاية والدها (ص) والاهتمام به كأفضل ما تكون الرعاية والاهتمام. وكما تحدثنا سيرتها، إنها (ع) كانت تخرج مع والدها الرسول (ص) في بعض غزواته وتتابع أخباره وتلاحقه في حركة دعوته، وتبادله العطف والمحبّة والحنان، وتأخذ منه العلم والمعرفة، وتعيش معه كل روحية الرسالة وكل مفرداتها، وتتعلم منه أخلاقاً تمثّلت في طريقة تفكيرها، كما في حركاتها وتصرفاتها، وأفعالها وأقوالها، وطريقة تعاملها مع الآخرين. وكان النبي (ص) بدوره يحبّ فاطمة ويحترمها ويعاملها معاملة خاصة، ويقول عنها: "*هي بضعة مني وروحي التي بين جنبي*"[33]. نعم كان حبّ عظيم، متبادل بين النبي (ص) وابنته فاطمة (ع) التي كانت تدقّق وتراجع مع أبيها في جميع المسائل، فتعرف مكنونات قلبه، وتفهم ماذا يريد لمجرد النظر إلى تعابير وجهه وعينيه. وهذا التصرف من الزهراء (ع) يبين لنا دقّتها وعمق تفكيرها في فهم ما يريد والدها من دون كلام. ومن

المعروف، إن الولد مأمور بالبر والإحسان الى أهله، وطبعاً لم تشذ فاطمة (ع) عن هذه القاعدة، حيث أن حبّ الوالد أو الوالدة لابنهما هو حب فطري لا يحتاج إلى شرح ولا إلى واسطة، أما حبّ الابن أو الابنة للوالد أو الوالدة فهو من باب الشكر الذي أنعم عليه فرباه، وكان سبب وجوده في الحياة، ليس أكثر، ولكن مع فاطمة لم يكن الأمر كذلك أبداً. فقد كان عندها من الحبّ لوالدها مقداراً أكبر من الحبّ العادي المتعارف عليه بين الابنة ووالدها، حيث كانت تشعر من شدة حبّها له كأنّه ولدها. وكأن هذا الحبّ كان بديلاً عن الحب الذي فقده الرسول (ص) بوفاة والدته، وزوجته، وبهذا تؤكد فاطمة (ع) لوالدها (ص) أنها جديرة بتحمل المسؤولية، فيفرح قلبه بها، حتى أطلقَ عليها لقب:"أم أبيها".

وكان الرسول (ص) يعرف مقام ابنته (ع) ومنزلتها ومقامها عند خالقها عزّ وجلّ، وقد أعدّها لكي تكون فخراً بين المسلمين والأنموذج الأمثل للمرأة المسلمة تتمثلها في كل مراحل حياتها. ويظهر ذلك من خلال الأحاديث النبوية الشريفة، وهي كثيرة جداً، ومن هنا فلا عجب أن تكون هي الشخص الأقرب له (ص)، وأن تكون حبيبته، والمرأة الأثيرة لديه، وأهم شخصية نسائية في حياته، ومُقَدّمة على زوجاته والآخرين، فكان عندما يراها يسعد ويفرح وتزول همومه وأحزانه. وهناك دلائل وشواهد وتقارير وروايات كثيرة تؤكد وتدل على مقدار محبّة كل منهما للآخر.

ولم يكن إيثار الرسول لإبنته فاطمة (ع) سوى لأنها معجونة بعجينة خاصة، فهي تختزن في أعماقها طاقات عظيمة من القدرة على العطاء والبذل والتضحية، والوقوف مع كلمة الحق ضد الباطل. كما تمتلك إحساساً عالياً بالمسؤولية، وكما جاء في الحديث الشريف: "كان تميّزها لخصلتين خصّها الله بهما، أولهما: أنها ورثت رسول الله (ص). وثانيهما: أن نسل رسول الله (ص) منها، ولم يخصّها الله بذلك إلاّ بفضل إخلاص عرفه من نيّتها".

هذه العلاقة الروحية والرسالية المميّزة بين فاطمة (ع) ووالدها (ص)، جعلت الزهراء أسيرة أسراره وعلومه، وهل هناك من هو أعلم منه (ص)؟. وينقل التاريخ الكثير من الأحاديث والروايات في فضل ومكانة فاطمة (ع) عند والدها الرسول (ص)، وعنه إنه قال: "*فاطمة*

بضعة مني، رِضا الله من رضاها، وغضبُه من غضبها". ولم يقل: رضا فاطمة من رضا الله وغضبها من غضبه، وذلك أمرٌ استثنائي لامرأة استثنائية. فتكون الزهراء بذلك أفضل من جميع الأنبياء (ع) ما عدا الرسول نفسه (ص) لأنها بضعته. فإن كان الرسول أفضل الأنبياء فبضعته (المادية والمعنوية) كذلك!. وربما لهذا قال (ص) عنها:" *ما عرفَك إلا الله وأنا*". وقد سمعنا أيضاً ما قاله أئمتُنا العظام (ع) عنها: "سميّت فاطمة لأنها فُطمت عن النار، ولأن الناس فطموا عن معرفتها"[34]. وكان الرسول عندما يشمّها يقول: "*إني اشم فيها رائحة الجنّة*"[35]. وقد كرّسها سيدة نساء أهل الجنة[36]. ولقبّها (ص) أيضاً بسيدة نساء العالمين[37].

هذا غيض من فيض من علاقات الود والرأفة والمحبّة التي سادت العلاقة بين فاطمة وأبيها الذي ترك وصايا عديدة في حقّها، وهذا التصرف من قبل الرسول إن عبّر عن شيء إنما يعبّر عن أن فاطمة قد أدّت الدائرة الأسرية حقّها، فتمتّعت بمكانة عالية عند والدها (ص)، فزادت أهميتها في حياته وبعد رحيله، كما تعبّر عن رفيع مقامها بالنسبة لرسالة الإسلام والأمة المسلمة، وعن أهمية بناء الأسرة الإسلامية النموذجية، الكاملة المواصفات الإلهية، فتكون فاطمة قد ساهمت وإلى حد كبير في بناء تلك الأسرة النموذج.

وعندما مرض النبي (ص) مرض الموت، بقيت الزهراء إلى جانبه (ص) في مرضه لا تفارقه، بل تعتني به، وتخدمه، وقد روي أنه (ص) قد سارّها، وهو في مرضه مرتين، وفي رواية عن عائشة (رضي) قالت: "كن أزواج النبي (عنده) لم يغادر منهن واحدة، فأقبلت فاطمة، تمشي ما تخطىء مشيتها من مشية رسول الله (ص) فلما رآها، رحّب بها قائلاً: "مرحباً يا ابنتي" ثم أجلسها بقربه، ثم سارّها، وهمس في أذنها، فبكت بكاء شديداً، فلما رأى جزعها، سارّها مرة أخرى، فضحكت". ولما سألتها عائشة (رضي) عن الموضوع أجابت (ع): "أما حين سارني في المرة الأولى، فأخبرني أن جبريل (ع) كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة أو مرتين، وأنه عارضه الآن مرتين فقال (ص): إنه لا يرى الأجل إلا قد اقترب (أي إن النبي (ص) قد استنبط أنها السنة الأخيرة في حياته) وأخبرني أنه يُقبض في وجعه الذي هو فيه فبكيت، ثم سارّني فاخبرني أني أول أهل بيته لحوقاُ به فضحكت"[38]. نعم ضحكت فاطمة (ع) عندما أُخبرت

بسرعة لحاقها بوالدها (ص). فأي إنسانة هذه التي تضحك لخبر موتها ؟ فالمرء عادة يحزن عندما يعلم أن أجله قد اقترب. ولكنها فرحت، لماذا؟. لا شك أنها فرحت لثقتها بأن الله سوف يُكرّمها، لأن الإنسان حينما يقدّم الأعمال الصالحة، عملاً تلو آخر، تكون سعادته في لقاء ربه عز وجل سعادة غير محدودة. وإن كان عمله سيئاً فسوف يحزن لخبر موته خوفاً من العقاب. فالمقياس هنا دقيق جداً!. وقد خاطب ربنا عز وجل اليهود: قائلاً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)، ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[39]. فأي إنسانة هذه التي تفرح بالموت؟. ولا شكّ أن خبراً كهذا، هو خبر كارثي بالنسبة لأي إنسان، ولكنّه لم يكن كذلك بالنسبة للسيدة فاطمة (ع) بل كان مدعاة سرور وراحة لها، لماذا؟ لأنها (ع) وبكل بساطة توالي الله ورسوله !.

وكأنها بعدم الخوف من الموت، بل الترحيب به قد رسمت لأولادها سنّة يمشون عليها، فها هو ولدها الإمام الحسين (ع) يسير على الطريق التي رسمته والدته، فعندما عزم على الخروج على يزيد، حمل أولاده ونساءه، وأهل بيته (بما فيهم الطفل الرضيع) وأصحابه (عليهم جميعاً أفضل السلام)، وقصد كربلاء، لمحاربة الطغمة الحاكمة، التي انحرفت عن طريق الحق، مع معرفته بأنه سوف يستشهد. وكذلك يذكّرنا هذا التصرّف من الزهراء بموقف حفيدها "علي الأكبر" عندما كان في نفس المسيرة مع والده الإمام الحسين (ع) حيث سمعه ينعي نفسه، فسأله: "أولسنا على الحق يا والدي؟". فاجأبه الحسين (ع): "بلى، والذي إليه مرجع العباد"، فأجابه علي الأكبر (ع): "إذن لا نبالي إن وقعنا على الموت، أو وقع الموت علينا"![40].

فأي درس من دروس التفاني والحبّ الأسري اللامحدود تقدّمه فاطمة (ع) لأولادها البررة، ومحبيها ومعارفها، بل وللأجيال القادمة؟

وصايا الرسول (ص) في ابنته فاطمة (ع)

وقد ترك الرسول (ص) للمسلمين من بعده، وصايا كثيرة في أهل بيته (ع) ومنها: "*إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض*"[41]. وفاطمة (ع) واحدة من أهل البيت المعصومين، الذين شملتهم آية التطهير وهي من عترة الرسول الذين هم امتداد له، وطاعتهم واجبة، لأنها من طاعته (ص). ويروى عن الإمام موسى الكاظم (ع) كانت فاطمة (ع) بمصاف الصدّيقة الشهيدة، وشهيدة: بمعنى الشهادة على الناس (الأمة)، ومقام الشهادة على الأمة أعلى من مقام الشهادة بمعنى القتل في سبيل الله، أذ كان لها أجرُ الشهيدة من خلال حياتها التي كانت حافلة بالتضحيات الكثيرة في سبيل الدين وإعلاء كلمته.

دفاع فاطمة (ع) عن حقها:

واكثر ما يتبن لنا تأثير السيدة الزهراء في الأجيال، موقفها ممن ظلمها ومنعها حقها. فقد وظّفت (ع) كل ما لديها من إمكانات وخصال حميدة في خدمة الرسالة المحمدية، ليس فقط كونها ابنة النبي الأعظم (ص) فحسب، بل كونها تؤمن بالرسالة ومستعدّة للتضحية بالغالي والنفيس من أجلها، فانطلقت بعلمها وعبادتها، واخلاصها لله، ولوالدها الرسول (ص) ولزوجها أمير المؤمنين، ومن أجل أولادها (ع)، ومن أجل الإسلام والمسلمين، فرفضت ما حصل من حرمانها حقها في إرث أبيها وعارضته. وقد لعبت دور الإعلامية المبدعة والمحامية القديرة، والثائرة على الظلم. فخرجت من خدرها إلى الحياة العامة، ولم يمنعها.